REVUE EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES

الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

المجلة التَّاريخيَّة المصْريَّة

مجلةٌ عِلْمِيَّة مُحَكَّمَة تُصْدِرُها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

حقوق الطبع محفوظة
للهيئة المصرية العامة للكتاب

الترقيم المطبوع	رقم الإيداع بدار الكتب
2401-1687	99/9440
الترقيم الألكتروني	الترقيم الدولي
3354-2735	977-5366-11-9

لنشر الأبحاث بالمجلة
يرجى الإرسال من خلال موقع المجلة على بنك المعرفة
https://jejh.journals.ekb.eg

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

١٤٤٣هـ ـ ٢٠٢١م

قطعة ٤ بلوك ٧ ـ المنطقة التاسعة ـ شارع د. رؤوف عباس ـ مدينة نصر ـ القاهرة
تليفون : ٠١١٢٧٣٨١٩١٢ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٤ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٦ ـ فاكس : ٢٤٧٢٨٢٩٨
Email: Seehist1945@yahoo.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المجلة التاريخية المصرية

REVUE EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES

تُصْدرهُا

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

المراسلات ـ الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

eegyptian.historical2021@gmail.com

المجلد الخامس والخمسون

القاهرة

٢٠٢١م

هَيْئَة التَّحْرِير

أ.د. أيمن فؤاد سيد ـ رئيس التحرير
أ.د. أحمد زكريَّا الشَّلْق
أ.د. أحمد الشِّرْبِيني السَّيِّد
أ.د. جمال مُعَوَّض شَقْرَة
أ.د. خَلَف عبد العظيم الميري
د. محمَّد فوزي رَحِيل ـ سكرتير التحرير

الهَيْئَة الاسْتِشَارِيَّة الدَّوْلِيَّة للمَجَلَّة

أ. د. إبراهيم القَادِري بوتْشِيش (المَغْرِب)
أ. د. أحمد رَجَب محمد علي (مصر)
أ. د. إسْحَاق تاوَضْرُوس عِبِيد (مصر)
أ.د. أشْرَف محمَّد مُؤْنِس (مصر)
أ. د. تُرْكِي بن فَهْد آل سَعُود (السَّعُودِيَّة)
أ. د. جولييت رَسِّي (لُبْنَان)
أ. د. حسين سيِّد عبد الله مُراد (مصر)
أ. د. السَّيِّد فِلِيفِل (مصر)
أ. د. عاصِم أحمَّد الدِّسُوقي (مصر)
أ. د. عبد الكَرِيم مَدُون (المَغْرِب)
أ. د. عبد الله بن محمَّد المُنِيف (السَّعُودِيَّة)
أ. د. عَفَاف سَيِّد صَبْرَة (مصر)
أ. د. عَلَاء الدِّين عبد المُحْسِن شَاهِين (مصر)
أ. د. محمَّد م. الأُرْنَاؤوط (كوسوفو)
أ. د. محمَّد صَابِر عَرَب (مصر)
أ. د. محمَّد السَّيِّد عبد الغَنِي (مصر)
أ. د. محمَّد عِيسَى الحَرِيرِي (مصر)
أ. د. محمُود إسْماعِيل عبد الرَّازِق (مصر)
أ. د. مُنِيرَة شَابُوتُو رِمَادِي (تُونِس)
Prof. Dr. Sylvie DENOIX (France)
Prof. Dr. Albrecht FUESS (Germany)
Prof. Dr. Nicolas MICHEL (France)
Prof. Dr. Tetsuya OHTOSHI (Japan)
Prof. Dr. Michel TUCHSCHERER (France)

الإخراج الفني وتصميم الغلاف : محمد أشرف عبد المقصود

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو الناشر

المحتـويات

الصفحة

طرق التخلص من المعارضين في العصر العباسي
شيماء أحمد السيد علي صالح ٧-٣٩

صَاعِدُ الأنْدَلُسِي ومنهجه في كتابه «طَبَقَات الأُمَم»
طارق أبو الوفا محمد ٤١-٩٢

صراع الغزنويين والسامانيين أثناء عملية تأسيس الدولة الغزنوية
Assoc. Prof. Dr. Izzetullah Zeki ٩٣-١٢٧

أثر ابن شحاذة اليمني القاهري المُقرئ في الحياة العلمية بمصر والحجاز
إبراهيم عبدالمنعم سلامة أبو العلا ١٢٩-١٧٢

العلَّامة أحمد بن العجمي الأزهريُّ ودوره في تمحيص آثار الأقدام
المنسوبة للنبيِّ ﷺ
أحمد عبدالعاطي حسن عمر الآثاريّ ١٧٣-٢١٠

الأهمية اللوجستية لمصادر المياه العذبة في سيناء أثناء الحرب العالمية الأولى
أماني صلاح الدين سليمان ٢١١-٢٤٨

الشيخ عبد العزيز الثعالبي والنخبة السياسية والفكرية في مصر
(١٩٢٤ - ١٩٣١م) «صحيفه الشورى نموذجًا»
أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس ٢٤٩-٢٨٨

موقف مصر من العراق بعد تكوين حلف بغداد ١٩٥٥-١٩٥٨م
(قراءة فى أرشيف الخارجية البريطانية)
أحمد عبد الدايم محمد حسين ٢٨٩-٣٤٩

الصفحة

حقوق مصر التاريخية في مياه النيل – دراسة وثائقية !
المُستشارة/ هايدي فاروق عبد الحميد ٣٥١-٣٨٥

القَاهِرَةُ في كِتَابَاتِ المُسْتَشْرِقِين
أيمن فؤاد سَيِّد ٣٨٧-٤٠٥

«التجار الفرنسيون في مصر في العصر العثماني»
حمادة جمال ناجي عرفان ٤٠٧-٤٢٥

أثر تطور وسائل النقل والمواصلات على شوارع القاهرة فى عهد أسرة محمد على
شيماء عبد الفتاح محمد الجرم ٤٢٧-٤٨٦

ضاحية مصر الجديدة أنموذج فريد للتنوع والتجانس الاجتماعي
علي عبد العزيز سليمان ٤٨٧-٥٠٨

Copper Extraction in the Timna mine. An Archaeological and Historical Study.
Mohamed Mahmoud Kacem 5-39

المجلة التاريخية المصرية ٥٥ (٢٠٢١) ٢١١-٢٤٨

الأهمية اللوجستية لمصادر المياه العذبة في سيناء أثناء الحرب العالمية الأولى

Logistical Importance of the sources of Fresh Water in Sinai during the First World War

أماني صلاح الدين سليمان(*)

ملخص

لعبت عناصر الإمداد والتموين دورا حاسما في الصراع الحربي المرير أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، حيث كانت امدادات الغذاء والمياه، وكذلك الإسعاف الطبي الميداني، وجهود نقل وإجلاء المصابين؛ عناصر قلبت الموازين ورجحت كفة فريق دون الآخر، بما خالف توقعات العسكريين، وتصوراتهم التقليدية لعمليات الإمداد العسكري وكيفية حسم نتائج المعارك الحربية، بل وبالمخالفة أحيانا لاعتبارات التسليح، أو القدرات الاستراتيجية.

وكان توافر المياه العذبة أحد العناصر الحاسمة في مراحل الصراع بين بريطانيا وتركيا وعلى الجبهة الشرقية بشكل خاص. فالقتال المرير الذي استمر لأربع سنوات في صحراوات مصر والشام، كشف بشكل واضح عن مدى تأثير ندرة المياه العذبة على أداء القوات المتحاربة، واحتياج

(*) باحث زميل في كلية الدراسات الدولية – جامعة صون يات – سن بجمهورية الصين الشعبية، أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر بمعهد دراسات البحر المتوسط– كلية الآداب – جامعة الإسكندرية.

الجنود العطشى إلى إمدادات وفيرة؛ تساعدهم على تحمل مشقة الحرب في صحراء سيناء، وفلسطين، وسوريا الكبرى.

ويناقش هذا البحث مدى تأثير توافر أو ندرة المياه العذبة على مسارات وتحولات الصراع العسكري الأنجلو- عثماني في صحراء سيناء أثناء الحرب العالمية الأولى. ويستعرض البحث المشروعات التي قامت بها القيادة البريطانية في مصر؛ من أجل ضم المياه العذبة إلى عناصر تفوقها، أو على الأقل محاولة تحييدها أثناء الصراع الضاري الذي بدأ بالهجوم التركي على قناة السويس، ثم تطور إلى الحملة العسكرية المعروفة باسم «حملة سيناء».

ومن خلال دراسة أحداث وملابسات الحرب العالمية الأولى خاصة في شرق البحر المتوسط، نجد أن تلك الحرب قد جمعت جنودا وقوات أتوا من بلاد لم تعرف حروب الصحراء أو العطش وندرة المياه. وسابق البريطانيون الزمن والظروف الطبيعية المعقدة، مستغلين العمال المصريين والجنود الهنود والاستراليين وغيرهم لتحقيق هدفهم؛ ألا وهو التوغل شرقا نحو مقرات القوات التركية في فلسطين وسوريا، وإزاحة مسرح القتال بعيدا عن قناة السويس ووادي النيل؛ هذا الهدف الذي كان يبدو مستحيل التحقيق في ظل الظروف البيئية الوعرة في شمال شرق مصر وجنوب الشام. ومن خلال هذه الدراسة؛ يتضح الاهتمام الفائق بالمياه العذبة كعنصر فارق وحاسم في صراع مصيري، ترتب عليه اسقاط امبراطورية بأكملها، وتغيير خريطة الشرق الأوسط ككل.

Abstract

The elements of supplies and subsistence played a decisive role in the conflict between the British and the Ottoman Empire during the First World War (1914-1918), as food and water supplies, as well as field medical aid

and efforts to evacuate the injured were elements that tipped the scales and favoured the British and their allies during the Sinai and Palestine campaigns and ended with the crushing defeat of the coalition Turkish, German and Austrian in Egypt and the Levant.

The availability of fresh water was one of the decisive elements in this conflict, as the bitter fighting that lasted for four years in the deserts of Egypt and the Levant in the eastern Mediterranean highlighted the impact of the scarcity of fresh water on the competence of the conflicting forces and the need of thirsty soldiers for abundant supplies to help them withstand the hardship of war in the desert. The animals also needed those supplies of horses and camels that had a role in the battle, in addition to transporting food, water, equipment, the wounded and camp supplies. The bragging of the number of soldiers and their equipment was necessarily followed by the question of how to provide for their essential needs of water and food as they tirelessly walked across hundreds of kilometres in an arid desert.

The research reviews the projects and steps, whether limited or major, that the British leadership took in Egypt to ensure fresh water in the elements of its superiority or at least attempt to neutralize it during the fierce conflict that began with the Turkish attack on the Suez Canal and then developed into the military campaign known as the "Sinai Campaign". The main task entrusted to the British forces in eastern Egypt was to defend the Suez Canal and repel any possible attack by the Turkish forces stationed in Palestine and the Levant towards the most important waterway for Britain's commercial interests and to link its eastern colonies with Europe.

*
* *

مقدمــة

لعبت عناصر الإمداد والتموين دورا حاسما في الصراع الحربي المرير الذي جرى سواء على الجبهة الشرقية أو على الجبهة الغربية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨)، وحتى على امتداد الجبهات العسكرية البعيدة الأقل أهمية في شرق أفريقيا أو الملايو، فكانت امدادات الغذاء والمياه، وكذلك الاسعاف الطبي الميداني، وجهود نقل وإجلاء المصابين؛ عناصر قلبت الموازين ورجحت كفة فريق على فريق آخر، بما خالف توقعات العسكريين، وتصوراتهم التقليدية لعمليات الإمداد العسكري وكيفية حسم نتائج المعارك الحربية، بل وبالمخالفة أحيانا لاعتبارات التسليح، أو القدرات الاستراتيجية.

وكان توافر المياه العذبة أحد أهم العناصر الحاسمة في مراحل الصراع بين بريطانيا وتركيا وعلى الجبهة الشرقية بشكل خاص، فالقتال المرير الذي استمر لأربع سنوات في صحراوات مصر والشام في شرق البحر المتوسط، كشف بشكل واضح عن مدى تأثير وجود أو ندرة المياه العذبة على أداء القوات المتحاربة، واحتياج الجنود العطشى إلى إمدادات المياه بشكل مستمر؛ مما يساعدهم على تحمل مشقة الحرب في صحراء سيناء، وفلسطين، وكافة أنحاء سوريا الكبرى. وقد زاد وجود الحيوانات المستخدمة في الحرب الحاجة إلى المياه بطبيعة الحال؛ حيث كانت الخيول لازالت مطية؛ يستخدمها الجندي والضابط على حد سواء، بالإضافة إلى الجمال التي كان لها دور في المعركة خاصة في نقل الغذاء، والمياه، والمعدات العسكرية، وترحيل المصابين، وقد كان الحديث عن حجم القوات والمباهاة بعدد الجنود وعتادهم يتبعها بالضرورة سؤال عن كيفية توفير احتياجاتهم الضرورية من المياه والطعام أثناء سيرهم الدؤوب عبر مئات الكيلومترات في صحراء سيناء القاحلة.

ويناقش هذا البحث مدى تأثير توافر أو ندرة المياه العذبة على مسارات وتحولات الصراع العسكري الأنجلو- عثماني في صحراء سيناء أثناء الحرب العالمية الأولى،

ويستعرض البحث المشروعات، والخطوات – سواء المحدودة أو الكبرى – التي قامت بها القيادة البريطانية في مصر؛ من أجل ضم المياه العذبة إلى عناصر تقدمها وتفوقها، أو على الأقل محاولة تحييدها أثناء الصراع الضاري الذي بدأ بالهجوم التركي على قناة السويس، والذي تطور إلى الحملة العسكرية المعروفة باسم «حملة سيناء».

ويقصد باللوجستيات في العمليات العسكرية ومناطق الصراع المسلح العلم الذي يستهدف تخطيط وتنفيذ تحركات القوات العسكرية وصيانة معداتها، ويشمل ذلك أيضا العمليات التي تنصب على اقتناء وتخزين ونقل وتوزيع الامدادت الغذائية والطبية، وعمليات صيانة وتوزيع العتاد والتخلص منه في ظروف معينة. كما تشمل اللوجستيات العسكرية أيضا نقل الأفراد، وكذلك بناء وصيانة وتشغيل وتأثيث المرافق واقتناء وحماية ما يخص الخدمات الطبية والصحية(١).

ومن خلال دراسة الفترة الزمنية للربع الأول من القرن العشرين، وأحداث وملابسات الحرب العالمية الأولى خاصة في شرق البحر المتوسط، نجد أن تلك الحرب طويلة الأمد جمعت جنودا وقوات أتوا من بلاد لم تعرف حروب الصحراء أو تجرب حالات العطش وندرة المياه. وقد سابق البريطانيون الزمن وتحدوا الظروف الطبيعية المعقدة، مستغلين العمال المصريين والجنود الهنود والأستراليين وغيرهم الذين تم حشدهم من مستعمرات وممتلكات الإمبراطورية البريطانية، لتحقيق هدفهم؛ ألا وهو التوغل شرقا نحو مقرات القوات التركية في فلسطين وسوريا، وإزاحة مسرح القتال بعيدا عن قناة السويس ووادي النيل؛ هذا الهدف الذي كان يبدو مستحيل التحقيق في ظل الظروف البيئية الوعرة في شمال شرق مصر وجنوب الشام، ومن خلال هذه الدراسة؛ يتضح الاهتمام الفائق بالمياه العذبة كعنصر فارق وحاسم في صراع مصيري خلال الحرب العالمية الأولى داخل سيناء، ترتب عليه إسقاط

---

(١) انظر قاموس المصطلحات العسكرية انجليزي وفرنسي الصادر عن منظمة اتفاقية حلف شمال الأطلسي الناتو NATO تحت تعريف Logistics (NATO Glossary of Terms and Definitions, AAP06, 2013, P192)

الامبراطورية العثمانية بأكملها، وتغيير خريطة الشرق الأوسط ككل.

الهجوم التركي الألماني على قناة السويس (يناير- فبراير ١٩١٥)

لم يكن الهجوم التركي- الألماني المرتقب على سيناء محض خيال من قبل البريطانيين، فقد بدأت القيادة العسكرية التركية منذ منتصف سبتمبر ١٩١٤ في حشد أعداد غفيرة من القوات العسكرية، والجمال، والعربان الرحل المسلحين، بالإضافة إلى الدفع بفيلقي «الموصل» و«دمشق»، الأفضل تسليحا وتدريبا بين جميع الفرق التركية في بلاد الشام، وجنوب فلسطين، وخاطبت «إستانبول» الحكومة المصرية، واعترضت على طرد الدبلوماسيين الألمان والنمساويين من مصر، كما طالبت أيضا الحكومة المصرية بأن تلغي الامتيازات الأجنبية، وقد أثارت كل من هذه الاجراءات والحشود العسكرية المتسارعة قلق البريطانيين، وأبدى القنصل البريطاني لدى «إستانبول» - السيد «ماليت» - استياءه من تلك التحركات التي لم ينكرها أو ينفيها الصدر الأعظم، بل أكد أنه تصرف شرعي وحتمي لكي تحمي تركيا نفسها، في حال أن نشبت الحرب وتصاعد التوتر بينها وبين بريطانيا، خاصة في نقاط التماس بينهما على حدود مصر وفلسطين[١].

وعندما أعلنت الدولة العثمانية الحرب على بريطانيا وحلفائها في نوفمبر ١٩١٤، بادرت بريطانيا إلى اعلان حمايتها على مصر في ١٤ ديسمبر١٩١٤، وهو القرار الذي صاحبه عزل الخديوي عباس حلمي الثاني عن حكم مصر، وعدم السماح له بالعودة إلى البلاد وقت زيارته لمدينة «إستانبول» حيث كان في تركيا وقت إعلان الحماية.

وكانت المهمة الرئيسية الملقاة على عاتق القوات البريطانية في شرق مصر هي الدفاع عن قناة السويس، وصد أي هجوم محتمل من قبل القوات التركية المرابطة في فلسطين والشام، باتجاه المجرى المائي الأهم في الشرق الأوسط، وشريان التجارة العالمية، ألا وهو قناة السويس.

---

(١) لطيفة سالم، ص ٤٧.

وقد كان القسم الأكبر من الضباط البريطانيين يرى أن الإدارة المصرية لا تكترث كثيرا بعملية حماية القناة؛ وكتب بعض كبار القادة البريطانيين ومنهم الكولونيل «إلجوود» Elgood – الحاكم العسكري لمدينة «بورسعيد»– أن المصريين لا يأبهون لمصالح بريطانيا التجارية والملاحية، ولا يعيرون اهتماما لمصالح شركة قناة السويس، وأن القتال بين البريطانيين والأتراك – إن نشب – فسوف يكون موجها نحو برزخ «السويس» أو صحراء سيناء، أي بعيدا عن مناطق تمركز السكان في مصر، الذين سيظلون في قراهم ومدنهم في أمان، بل والأرجح أنهم يتمنون سرا انتصار التحالف التركي – الألماني ضد بريطانيا وحلفائها(١). ورغم أن الرقابة الصارمة على الصحف والمطبوعات المصرية منعت أخبار الحشود التركية الألمانية الضخمة من الوصول إلى عموم المصريين، الا أن الصحف الإنجليزية والفرنسية الصادرة في أوروبا والتي كانت تصل إلى مصر – ويقرأها الأجانب وقلة من المصريين – كانت تشير بوضوح إلى التنسيق العسكري الكبير بين الألمان والأتراك؛ الذين لم يخفيا طموحهما المشترك في الوصول إلى «القاهرة» عبر قناة السويس(٢).

وكان البريطانيون في موقع ممتاز للتحكم في القناة، رغم أن قواتهم في مصر قبل بداية الحرب لم تتجاوز بضعة آلاف، فرغم قدرة الأتراك على الدفع بعشرات الآلاف من ضباطهم وجنودهم المحتشدين في جنوب تركيا والشام نحو سيناء، إلا أن القلة من الجنود البريطانيين المتمترسين حول القناة – شرقها وغربها – لم يقض مضاجعهم، زحف الأتراك عبر صحراء سيناء القاحلة التي تفتقر إلى المياه العذبة؛ حيث كان موقع البريطانيين حول القناة يضمن تمتعهم بمصدر دائم ووفير للمياه؛ ألا وهو ترعة السويس العذبة (ترعة الإسماعيلية حاليا) والتي تعد شريان المياه الرئيسي للبشر والمزروعات في المدن والقرى المتاخمة للقناة، والواقع أن حسابات أعداد القوات كانت

---

(1) ELGOOD, (1920), pp. 42-43.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٥.

ترجح كفة الأتراك في حالة هجومهم عبر سيناء، لكن حسابات الإمداد والتموين كانت تتنبأ بتفوق بريطاني؛ على يد قوات كانت قد أمنت الغذاء والماء للأفراد والحيوانات واستخدام المعدات، برغم محدودية أعدادها(١).

وأصدر قائد القوات البريطانية في مصر «جون ماكسويل»(٢) أوامره بتراجع وانسحاب الفرق البريطانية قليلة العدد التي كانت قد تناثرت لحراسة عمق شبه جزيرة سيناء، خاصة بعد التوترات التي شهدتها العلاقات مع الأتراك في فلسطين، عقب أزمة طابا في ١٩٠٦، وأمر بضم تلك الفرق وعناصرها المحدودة إلى نظيرتها من الفرق الأكثر عددا والأفضل تسليحا التي كانت تقوم على حراسة قناة السويس، وكانت قوات هذه الفرق مستقرة في معسكرات لا تبعد سوى بضعة كيلومترات عن المجرى الملاحي للقناة(٣). وكان البريطانيون قد اعتادوا على تنظيم دفاعاتهم على طول الساحل الشرقي لقناة السويس، من الشمال إلى الجنوب على أن يكون مركز القيادة في مدينة الإسماعيلية، ورأت القيادة العسكرية البريطانية أن التصرف الأمثل يقتضي ابقاء القوات بالقرب من القناة، بحيث لا يبتعد أفرادها عن مصادر المياه العذبة، وإمكانات الإمداد والتموين وتغطية المدفعية، المتواجدة على امتداد القناة شرقا وغربا(٤).

وكان القادة الألمان قد حاولوا إقناع حلفائهم الأتراك أن توفير خطوط إمداد متصلة لتغذية القوات المسلحة في معركة ممتدة عبر سيناء وحتى قناة السويس أمر غير

---

(1) LOCK, p. 3.

(٢) جون ماكسويل (١٨٥٩-١٩٢٩) عسكري بريطاني شهير، شارك في اخماد الثورة المهدية في السودان وحارب في حرب البوير الثانية في جنوب أفريقيا. قاد القوات البريطانية الأيرلندية المشتركة في مصر منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى وحتى ربيع ١٩١٦ حيث نجح في صد الحملة التركية الألمانية على قناة السويس وقام بجهود كبرى في دعم جيوش الحلفاء على جبهة جاليبولي/ الدردنيل. ثم انتقل إلى أيرلندا واشتهر بأنه القائد العسكري الانجليزي الذي أمر بإعدام قادة انتفاضة عيد الفصح الأيرلندية في عام ١٩١٦.

(3) ELGOOD, (1920), p.66.

(4) Falls, p.24.

ممكن، وأن حشد القوات في حلب ونقلها عبر دمشق إلى جنوب فلسطين ثم المرور بها عبر صحراء سيناء والوصول إلى القناة أمر غير قابل للتنفيذ؛ بحسابات الوقت والإمداد والتموين، وخاصة في القسم الأخير والفاصل من الهجوم والذي سيمتد عبر صحراء شبه جزيرة سيناء؛ التي لا يعرف دروبها حق المعرفة سوى أهلها، كما أشار الألمان إلى صعوبة نقل الماء والطعام – إذا توفر – بكميات تكفي الحشود الضخمة التي اعتزمت القيادة التركية الدفع بها للاستيلاء على قناة السويس، وقدم الألمان للقيادة التركية حلا بديلا؛ يتمثل في شن غارات، أو عمليات نوعية محدودة، يقوم بها ضباط ألمان وأتراك، لإغراق أجسام تعوق المجرى الملاحي للقناة؛ وبالتالي تتعطل حركة السفن التجارية، وناقلات الجنود بين الهند وأستراليا وأوروبا؛ دون أن يتكبد التحالف الألماني التركي مشقة الدفع بقوات كبيرة، أو الالتحام المباشر مع القوات البريطانية، التي لن تدخر جهدا للدفاع عن قناة السويس[١].

وكان «الجوود» يرى أن السبب في ترجيح القرار بحشد حملة عسكرية عبر سيناء وليس القيام بعملية تخريبية بالطائرات الحربية إلى غرور «جمال باشا »[٢] وسوء تقديره كقائد للجيوش التركية في الشام، فقد أطلق على نفسه لقب «منقذ مصر» ووعد

---

(1) ELGOOD, (1920), p.108.

(٢) أحمد جمال باشا (١٨٧٢-١٩٢٢) أحد أهم وأشهر ضباط حركة الاتحاد والترقي ومن طليعة ضباط تركيا الفتاة، شارك في حرب البلقان وعين حاكما عاما على استانبول في ١٩١٣. أجاد اللغة الفرنسية وتطبع بالثقافة الفرانكفونية وحاول تكوين تحالف استراتيجي سياسي وعسكري مع فرنسا الا أن مساعيه لم تكلل بالنجاح. كلف بوزارة البحرية وقاد الجيوش التركية في الشام وأصبح حاكما عاما على سوريا الكبرى ولقب بالسفاح لشدته في التعامل الأهالي، وأمر باعدام أكثر من ثلاثين مثقفا وسياسيا وكاتبا في دمشق وبيروت عامي ١٩١٥ ثم ١٩١٦. فر من تركيا بعد توقيع الهدنة في مودروس وحوكم غيابيا وصدر ضده حكم بالاعدام أثناء تنقله بين ألمانيا وسويسرا. حاول الأفغان الاستعانة به لتطوير جيشهم، وانتقل بعدها إلى جورجيا محاولا استرضاء مصطفى كمال للعودة إلى تركيا. إلا أن مجموعة من المسلحين الأرمن اغتالوه في مدينة تبليسي عاصمة جورجيا عام ١٩٢٢ وحمل جثمانه إلى مثواه الأخير ليدفن في تركيا.

مودعيه أثناء سفره إلى جنوب فلسطين بألا يعود إلا بعد أن يدخل «القاهرة» منتصرا، ويظن «الجوود» أن «جمال باشا» قد بنى تصوره لنجاح الحملة على عاملين نفسيين جمعهما سوء التقدير والمخيلة الواسعة لـ «جمال باشا»؛ وهما أولا أنه سوف يهب المصريون في ثورة ضد البريطانيين بمجرد أن يعلموا بالتحركات التركية –خاصة بعد دعوة الجهاد التي أطلقها شيخ الإسلام داعيا المسلمين إلى نصرة إخوانهم في الحرب ضد أوروبا، وثانيهما اعتقاده أن القادة والجنود الأتراك والألمان سيبذلون قصارى جهدهم في القتال؛ طمعا في الوصول إلى مصر والاستمتاع بخيراتها، والعمل على تحقيق انتصار ضخم غير مسبوق(١). ومن وجهة نظر «الجوود» نجد أن الألمان قد تخوفوا من تلك الحملة لأسباب علمية وفنية وحسابات لها علاقة بالعوامل الطبيعية واللوجستية للحرب في سيناء، بينما بنى الأتراك خطتهم على أسس دعائية ونفسية لا يمكن الجزم بإمكان تحققها من عدمه.

والحقيقة أن الكثير من الضباط البريطانيين ومنهم الميجور «لوك» الذي خدم في حملتي سيناء وفلسطين قد أشاروا إلى أنه بدراسة التاريخ العسكري الحافل لسيناء عبر عصور وممالك مختلفة، يتضح أن توفير المياه العذبة للجيوش التي عبرت سيناء – سواء من الشرق إلى الغرب أو بالعكس – كان هاجسا مستديما يستدعي تحضيرات معقدة وتجهيزات خاصة(٢).

ورغم تشكك القوات البريطانية في موعد وكيفية الهجوم التركي – الألماني، بدأت القوات البريطانية في تنظيم دفاعاتها، وقامت بإغراق مساحات واسعة من الأراضي الصحراوية الواقعة شمال شرق قناة السويس داخل سيناء بالمياه، وذلك لإعاقة أي هجوم بري محتمل على مدينة «بورسعيد» والمدخل الشمالي للقناة، وتكفلت البحرية البريطانية بعملية الدفاع عن المجرى المائي من جهة الشمال بالتمركز في البحر

---

(1) ELGOOD, (1920), p.108.

(2) LOCK, p.5.

المتوسط، وتم نشر عدد محدود من القطع البحرية البريطانية في البحيرات المرة وبحيرة التمساح[١]. وتمركزت الدفاعات البريطانية في ثلاث مناطق متعاقبة؛ تبدأ المنطقة الأولى شمالا من «بورسعيد» وحتى «الفرادن»، تليها المنطقة الثانية من «الفردان» إلى « الدفرسوار»، وأخيرا المنطقة الثالثة وتمتد من «الدفرسوار» وحتى مدخل خليج السويس[٢].

وكان «جمال باشا» قائد القوات التركية قد اجتمع مع القائد الألماني المحنك «كريس فون كريسنشتاين»[٣] في مدينة «القدس» لاختيار الطريق الأمثل الذي ستسلكه القوات المشتركة تحت قيادتهما، من جنوب فلسطين إلى القناة عبر سيناء، وانحصرت الاحتمالات في ثلاثة محاور رئيسية[4]:

(أولا) المحور الشمالي: ويمتد بمحاذاة ساحل البحر المتوسط من «غزة» شرقا إلى «رفح» فمدينة «العريش» حتى «بورسعيد» غربا، وهو شريط سهلي ساحلي ضيق يحده من الشمال البحر المتوسط، ويحاذيه جنوبا سلسلة ممتدة من الكثبان الرملية من «العريش» وحتى «القنطرة». ورغم توافر عدد لا بأس به من الآبار الجوفية، وبعض أشجار النخيل والزراعات البسيطة المتناثرة، الا أن هذه الكثبان الرملية الكثيفة تجعل مرور العربات شبه مستحيل، كما أنها تعوق تقدم قوات المشاة، وتضيف عليهم جهدا بدنيا فائقا حال سيرهم عبرها، ومن الجدير بالذكر، أن المسير عبر درب معين تسلكه

---

(١) المرجع السابق، ص ص:٤-٥.

(2) FALLS, p.25.

(٣) كريس فون كرسنشتاين (١٨٧٠ – ١٩٤٨) عسكري ألماني شهير أرسلته القيادة الألمانية عام ١٩١٤ إلى تركيا ليكون عونا للقوات التركية في الحرب الوشيكة،آنذاك، حارب مع جمال باشا في سيناء وفلسطين ثم وقفا في معسكرين مضادين عام ١٩١٨ عندما انفصم التحالف الألماني التركي، فساعد كرسنشتاين الجيش الروسي على احتلال جورجيا بينما نجح جمال ورجاله في الاستيلاء على أذربيجان. تقاعد في عام ١٩٢٩ وتوفي في ألمانيا عام ١٩٤٨ تاركا عدة مقالات بالإضافة إلى مذكراته التي نشرها في جزأين الأول عن الحرب في فلسطين والثاني عن الحرب في القوقاز.

(4) ELGOOD, (1920), p.122.

القوافل أمر ممكن تحقيقه بلا شك، وهو ما جعل البحرية البريطانية تضع سفنها ذات المدفعية بعيدة المدى على شاطي البحر المتوسط أمام الساحل الشمالي لسيناء؛ استعدادا لقصف القوات التركية – الألمانية حال عبورها.

(ثانيا) المحور الأوسط: ويبدأ عادة من «بئر سبع» في فلسطين وحتى « العوجة » وصولا إلى الممر الملاحي للقناة عبر « نخل » وصولا إلى « الإسماعيلية »، وهو طريق معروف لقبائل سيناء ولكنه غير محبذ، ويمتد هذا الطريق عبر مناطق واسعة من الحجر الجيري التي تشكل مرتفعا ممتدا بعرض شبه الجزيرة تقريبا، بحيث يشكل جرف عال يحاذي الكثبان الرملية الممتدة شمالا، وينتهي الجرف غربا بمنطقة «أم خشيب» المنخفضة، مما يشكل مكانا ممتازا لتجمعات مياه الأمطار، وبالتالي تتوفر الخزانات الطبيعية، خاصة في السنوات التي تشهد سقوط أمطار كافية لملء هذه الخزانات الطبيعية بالمياه تحت الأرض.

(ثالثا) المحور الجنوبي: ويبدأ كذلك من «بئر سبع» إلى «العوجة » ثم إلى جنوب غرب سيناء باتجاه «الطور» وصولا إلى مدينة «السويس»، وهو طريق شديد الوعورة ويستلزم الانصياع الكامل للبدو وضمان ولائهم، ويعد المحور الجنوبي الأكثر فقرا بين محاور سيناء الثلاث، سواء من ناحية تواجد السكان أو المياه أو مصادر الطعام، خاصة في قسمه الشرقي؛ حيث أن الجبال الممتدة على خليج العقبة تتجاوز ارتفاعاتها أحيانا الألفي متر[1]. وبسبب الصعوبات الطبيعية التي قد تواجه أي جيوش تعبر سيناء؛ فكر القادة الأتراك في نهاية عام ١٩١٤ أن يمدوا خط دمشق –الحجاز الحديدي من «معن» على رأس خليج العقبة إلى داخل سيناء، إلا أن وعورة التضاريس في المنطقة مثلت هي الأخرى عقبة لا تسمح ظروف الحرب بإمكانية ترويضها، خاصة في وجود الطراد الحربي البريطاني «مينرفا» الذي كان يجوب خليج العقبة بشكل يمنع ويهدد مرور القوات التركية عبر هذا الطريق،

---

(١) المرجع السابق، ص ص: ١٢٣-١٢٥.

سواء سيرا على الأقدام أو بالسكك الحديدية[١].

وفي ظل هذه الظروف الصعبة، رأت القيادة البريطانية أن تحركا تركيا خلال الشتاء يعد أمرا مستحيلا، وإن حدث فسوف يكون تقدم القوات التركية الألمانية عبر طريق القوافل التاريخي أي على المحور الشمالي بمحاذاة ساحل البحر المتوسط، أي التحرك الأكثر احتمالا – على حد ظن البريطانيين– أن الأتراك لن يخترقوا الطريق الأوسط في موسم الشتاء، حيث تهطل الأمطار بغزارة على وسط سيناء مسببة أحيانا سيولا قاتلة، واستبعد البريطانيون كذلك مرور القوات التركية عبر المحور الجنوبي الوعر للأسباب السالف ذكرها، وقد تأكد للبريطانيين ظنونهم حيث استخدام الأتراك في هجومهم طريق الساحل أول الأمر؛ ووقع أول اشتباك مباشر بين الجانبين في شمال غرب سيناء يوم العشرين من نوفمبر ١٩١٤، أثناء تفقد ضابط مصري هو الملازم «أحمد أنيس» من هجانة السواحل للمنطقة الواقعة بين «قاطيا» و«بئر النصف»، حيث هاجمه عشرون رجلا مسلحا من راكبي الجمال المتعاونين مع القوات التركية، واستطاعوا أن يقتلوا اثني عشر رجلا، ويصيبوا ثلاثة آخرين من فرقة الهجانة المصرية، ثم لاذوا بالفرار[٢].

والواقع أن وفرة المياه على المحور الأوسط – رغم خطورة الأمطار والسيول المتوقعة خلال النصف الثاني من شهر يناير ١٩١٥– بالإضافة إلى العقبات الطبيعية والعسكرية على المحورين الشمالي والجنوبي، جعلت الأتراك والألمان يختارون المحور الأوسط طريقا للوصول إلى قناة السويس. وكانت الأمطار قد هطلت بغزارة في ديسمبر ١٩١٤ وبداية يناير ١٩١٥؛ وملأت خزانات المياه الطبيعية على المحور الأوسط، لتحسم قرار «جمال باشا» بشأن المحور الذي سيسلكه في طريقه إلى قناة السويس. فتقدمت القوات التركية– الألمانية عبر المحور الأوسط في صحراء سيناء، يصاحبها القائدان المخضرمان «جمال باشا» و«كريسنشتاين»، وحملوا معهم أسلحتهم

---

(1) BEAN, p.142- 143.

(٢) لطيفة سالم: المرجع السابق ٢١٦-٢١٧.

ومؤنهم، بالإضافة إلى الطوافات العائمة؛ استعدادا لعبور القناة فور وصولهم إليها للتقدم حتى «القاهرة»، أي أن الأتراك والألمان قد سلكوا الطريق الذي ظن البريطانيون أن وعورته ستعوق تحرك القوات الكبيرة عبره، وستجعل الأتراك يعزفون عن اختياره(١).

وقد نجح الأتراك في مساعيهم، ووصلت قواتهم إلى القناة مزودة بقدر معقول من مياه الشرب التي أخذوها معهم من خزانات فلسطين إلى صحراء سيناء، أو جمعوها من بعض الآبار في طريقهم، وخطب «جمال باشا» في جنوده قائلا أن الطريق التي اختارها لعبور سيناء لم يختارها قائد عسكري من قبل، فحتى السلطان «سليم الأول» فاتح مصر وكذلك «إبراهيم باشا» ابن «محمد علي» قد اختارا المحور الشمالي عبر «العريش» في حملاتهما وفقدا نصف رجالهما تقريبا ثمنا لقرارهما ذلك(٢).

وقد ترك أحد الجنود الأتراك دفتر يومياته، وعثرت عليه عناصر من الجيش البريطاني، وردت فيه تفاصيل الظروف التي قابلت القوات التركية – الألمانية في مسيرتها نحو قناة السويس، وقد كان ذلك الجندي شابا مصريا يافعا يدرس العلوم العسكرية في «إستانبول»، وشارك في الحملة التركية – الألمانية على سيناء في شتاء ١٩١٥، ولقي مصرعه بالقرب من قناة السويس تاركا دفتر يومياته المذكور، والذي عبر فيه عن استيائه الشديد وكراهيته للاحتلال البريطاني لمصر، وكتب لوالديه رسالة مفادها أنه يعلم مصيره، وأنه سيلقى حتفه خلال المعارك ضد البريطانيين، لكنه مُصر على القتال(٣).

ويروي الشاب المصري المجند في الجيش التركي قصة الزحف من «بئر سبع» باتجاه قناة السويس، والتي بدأت أصلا من مدينة «القدس» في الحادي عشر من يناير

---

(1) ELGOOD, (1928), pp.218-219.

(2) BEAN, p.148.

(٣) المرجع السابق: ١٤٩-١٥٥.

١٩١٥، ويحكي عن المشقة التي لاقاها هو وزملاؤه، وإصرار «جمال باشا» على أن تشترك فرق المشاة مع جنود المدفعية في جر المدافع والأسلحة الثقيلة عبر الصحراء، ويقول الجندي الشاب أنه بعد مسيرة أيام، وجر أحمال عبر الصحراء، وصل الجنود إلى وادي العريش منهكين صباح يوم الثامن عشر من يناير ١٩١٥، يعانون من شدة العطش فلم يجدوا سوى مياه شبه مالحة سيئة الطعم في الآبار والعيون السيناوية، إلا أنهم لم يملكوا ترف الاعتراض على طعمها أو جودتها، وقد أمر جمال باشا المهندسين العسكريين بتعميق الآبار للوصول إلى مياه غير سطحية أفضل طعما، وهو ما استطاعوا الحصول عليه بالفعل - بحسب مذكرات الجندي المصري - وحاول الأتراك والألمان جعل السير بعد انقضاء حر الظهيرة، في ساعات أقل حرارة لتخفيف وطأة الحر والظمأ على الجنود، الا أن المسيرة استمرت وصولا إلى منطقة «أم خشيب» الغنية بالخزانات الطبيعية من المياه ذات التكوينات الجيولوجية الفريدة؛ فتمكنت القوات من الحصول على المياه اللازمة وأخذ قسط كاف من الراحة، في منطقة لا تطالها عيون الطيارين البريطانيين الذين كان مركزهم الرئيس في مدينة «الإسماعيلية»، وكانوا يجوبون المنطقة بحثا عن القوات التركية على المحور الأوسط[١].

واعترف الضباط البريطانيون باندهاشهم من نجاح الأتراك في اختراق المحور الأوسط، وكتب «الجوود» عما أسماه انجاز «جمال باشا» الذي نجح في الوصول عبر طريق شاق إلى أعتاب قناة السويس في ١٩١٥، حاملا الرجال والمتاع، والأسلحة، وخزانات الماء مخترقا صحراء سيناء القاحلة، مما يستحق الإشادة والاعجاب بهذا الإنجاز العظيم، حتى وإن تحقق على يد العدو[٢]. وعلى الرغم من ذلك، كان الضباط الألمان متشككين في كل خطوات «جمال باشا»، واستشعروا فيها بغروره واستهانته بخصم قوي في حجم بريطانيا وحلفائها، فلم يقتنعوا بإمكانية غزو بلد بحجم مصر

---

(١) المرجع السابق.

(2) ELGOOG, (1928), p.219.

بدون استخدام سلاح الجو، وبأعداد لا تتجاوز العشرين ألف مقاتل[١].

وفوجئ البريطانيون بالقوات التركية الألمانية تفتح عليهم نيرانها عند مدينة «القنطرة شرق» يوم السادس والعشرين من يناير ١٩١٥، ولو أن المعلومات الاستخباراتية كانت قد وصلت «الإسماعيلية» وعرف البريطانيون بتقدم الأتراك عبر المحور الأوسط، وقد حاول الأتراك نشر أعداد قليلة من القوات القليلة الأهمية على طريق القوافل على المحور الشمالي؛ لتضليل البريطانيين الذين كانوا قد رصدوا بطائراتهم القوات التركية أثناء استراحتها في «أم خشيب»، وأصبح لا مجال للشك في الطريق الذي سلكه «جمال باشا» ورجاله على المحور الأوسط[٢].

ولقد تمكن الأتراك والألمان من الاشتباك مع القوات البريطانية على طول الدفاعات المتراصة على قناة السويس، واستمرت المعارك دون هوادة، واستخدمت فيها المدفعية والقطع البحرية وسلاح الطيران حتى الخامس من فبراير ١٩١٥، وقد تمكن الجنود الأتراك من عبور القناة إلى شاطئها الغربي؛ عن طريق طوافات يحمل كل منها قرابة عشرين رجلا، إلا أن هؤلاء استسلموا للقوات البريطانية فور عبورهم إلى الجانب الآخر، واشتركت القطع البحرية الفرنسية في المعركة من موقعها بالمجرى الملاحي لقناة السويس؛ الذي كانت شركة القناة قد أخلته، وأعلنت توقف حركة الملاحة عبره إلى أجل غير مسمى وبحلول الخامس من فبراير، بدأ انسحاب الأتراك والألمان، حيث أمر «جمال باشا» و«كريسنشتاين» قواتهما بالانسحاب والتراجع والسير دون هوادة ليومين متصلين عبر صحراء سيناء القاحلة، وبدأت شكوى الجنود من الظمأ، وقال شهود عيان أن الجمال المصاحبة للقوات التركية كانت تتساقط ميتة على طول الطريق بسبب شدة العطش، حتى أن نصف عدد الجمال الذي أتى مع الحملة التركية قد قضى

---

(١) المرجع السابق ١٢٧.

(٢) المرجع السابق ١٢٩.

نحبه، ليس في المعركة ولكن خلال الانسحاب بفعل شدة العطش والجوع[١].

الحملة البريطانية على سيناء واستراتيجية الدفاع المتقدم

تم تكليف السير «أرشيبالد موراي»[٢] بقيادة القوات البريطانية العاملة في مصر بعد وصوله إليها في مارس ١٩١٦، وكتب «موراي» في مذكراته مؤكدا أن مهمته الأساسية في قيادة العمليات العسكرية تمثلت في « كيفية العناية بقوات عسكرية كبيرة العدد»؛ حيث كانت أهم مسئولياته امداد الرجال بالماء والطعام والحيوانات اللازمة سواء للطعام أو الركوب أو النقل، وكذلك توفير المعدات الطبية ووسائل الاتصال، بل والحفاظ على خطوط اتصال مفتوحة مع القوات العاملة على طول الجبهة الشرقية؛ التي امتدت من سالونيك في اليونان إلى البصرة في العراق وحتى شرق أفريقيا[٣].

وفي مارس ١٩١٦، تم الاعلان عن تشكيل ما عرف بـ Egyptian Expeditionary Force أي «قوات الحملة المصرية». وجمعت هذه الحملة أو التجريدة الضباط والجنود العائدين من حملة جاليبولي أو الدردنيل، بعد فشلهم في السيطرة على المضايق التركية، وجمع «موراي» مع هؤلاء كافة القوات البريطانية العاملة في شرق مصر، ومثلت هذه القوات معا التشكيل الأهم على الجبهة الشرقية، والذي ضم

---

(١) المرجع السابق ١٣٣-١٣٧.

(٢) سير أرشيبالد «موراي» (١٨٦٠-١٩٤٥) عسكري بريطاني شهير وأحد أهم القيادات الحربية البريطانية خلال حرب البوير ثم الحرب العالمية الأولى التي حارب خلالها على الجبهتين الغربية ثم الشرقية. تخرج في أكاديمية ساند هيرست العسكرية المرموقة والتحق بالقوات البريطانية في ١٨٧٩ حيث شارك في حربي البوير الأولى والثانية ونال عدة ترقيات استثنائية بسبب خدمته وكفاءته في قمع ثورة قبائل الزولو. عمل قائدا لأركان القوات البريطانية في فرنسا وبلجيكا عام ١٩١٤ ثم تولى قيادة القوات البريطانية في مصر وعلى الجبهة الشرقية في عام ١٩١٦ وحتى يونيو ١٩١٧. وقام «موراي» بدور محوري في حملتي سيناء وفلسطين وفي دعم الثورة العربية في الحجاز والشام مما أفضى إلى هزيمة الأتراك وانتصار بريطانيا على الجبهة الشرقية واسقاط الحكم العثماني في المشرق العربي إلى غير رجعة.

(3) MURRAY, p.5.

جنودا من كافة أنحاء الإمبراطورية؛ حيث قاتل الإنجليز والأيرلنديون جنبا إلى جنب مع الهنود والمصريين والأستراليين والنيوزيلنديين، بالإضافة إلى بعض الفرق من جزر الهند الغربية[١].

وكان السؤال الأهم المطروح بين القيادات العسكرية والسياسية البريطانية في «القاهرة» هو كيفية تحريك خط الدفاع شرقا باتجاه عمق سيناء، مع إمداد الآلاف من الجنود الذين سيخترقون صحراء سيناء بالمياه العذبة؛ حيث اعتادت القوات البريطانية حماية القناة والدفاع عنها على مسافات قريبة، دون أن تبتعد عن شواطئها الشرقية سوى بضعة كيلومترات؛ وهو ما يعني أن امدادات المياه العذبة اللازمة للقوات المتمركزة في قاعدة قناة السويس كانت متوفرة وسهلة النقل من ترعة الإسماعيلية.

لكن خط الدفاع المتقدم الذي قرر «موراي» تأسيسه شرق القناة – والذي تطور لاحقا إلى حملة هجومية عبر سيناء، وصولا إلى جنوب فلسطين، ومنها إلى كافة أنحاء الشام – كان يعني أن القوات البريطانية سوف تخترق شبه جزيرة سيناء، وفي هذه الحالة سوف تبعد يوما بعد يوم عن مصدر المياه العذبة الدائم والوحيد في شرق مصر ألا وهو ترعة الإسماعيلية على الضفة الغربية لقناة السويس.

وأمر «موراي» أولا باستكشاف وحصر جميع مصادر المياه المتوفرة أو المقترحة، والتي ستقرر مدى التقدم الذي يمكن أن يحققه الجنود البريطانيون والقوات الحليفة في عمق سيناء، وكتب «موراي» في تقاريره العسكرية – التي استطاع نشرها عام ١٩٢٠ – أن ذلك الحصر أفضى إلى نتيجة مخيفة؛ تشير إلى ندرة المياه العذبة شرقي قناة السويس، وقد كانت الكتائب والوحدات العسكرية المحدودة المتمركزة شرق قناة السويس منذ بدء الاحتلال البريطاني لمصر في عام ١٨٨٢ وحتى شتاء ١٩١٥ تحصل على المياه العذبة عن طريق الصهاريج، والخزانات المتنقلة الصغيرة، التي تأتى إلي معسكراتهم ودورياتهم محمولة من «بورسعيد» و«الإسماعيلية» و«بور توفيق»،

(1) KITCHEN, 2017.

ومصدرها هو مياه الشرب المفلترة التي تصل إلى مدن القناة – وخاصة «الإسماعيلية»– من المصدر الأساسي الذي يعتمد عليه السكان المدنيون ألا وهو ترعة الإسماعيلية، وهو الأمر الذي كان من المستحيل تطبيقه اذا أصبحت أعداد القوات بالآلاف، وإذا أصبحت هذه القوات على مسافات بعيدة وفي صحراوات وجبال يصعب اجتيازها.

وباستعراض الحلول البديلة وجد «موراي» ورجاله أنه يمكن تأمين وجود المياه العذبة لقوات حملة سيناء العسكرية البريطانية والفرق الملحقة بها من خلال ثلاثة مصادر فقط(١):

أولا: الاعتماد على آبار المياه العذبة والعيون والخزانات الطبيعية الموجودة بالفعل في سيناء، والتي يعرف البريطانيون والأتراك على حد سواء أماكن تواجد معظمها، علما بأن جودة المياه تختلف من بئر لآخر؛ فالبعض صالح للشرب، والكثير خفيف الملوحة Brackish، أما النوع الثالث منها فماؤه مالح تماما Saline.

ثانيا: حفر آبار جديدة في صحراء سيناء، ويتمثل هذا الحل في إنزال أنابيب حفر رأسية للبحث عن الماء في نقاط عميقة داخل سيناء؛ بغية الحصول على مياه جوفية عميقة صالحة للشرب أو بحاجة إلى معالجة طفيفة، إلا أن هذا الحل الأقرب إلى التنفيذ والأقل تكلفة لم ينجح؛ فقد استخدم المهندسون العسكريون بالتعاون مع مصلحة الجيولوجيا المصرية أنابيب رأسية للحفر حتى عمق ٣٠٠ قدم، ولم يحصلوا إلا على مياه مالحة بدرجات متفاوتة لا تصلح جميعها للشرب. وتكررت المحاولات لاحقا في مناطق مختلفة منها منطقة «رومانة – المحمدية» حيث حصل المهندسون العسكريون على نفس النتائج المخيبة للآمال.

ثالثا: نقل مياه ترعة الإسماعيلية إلى شرق القناة على أن يتم ذلك من خلال ضخ المياه في أنابيب، تمتد عبر قاع المجرى الملاحي ثم ترفع الماء إلى الساحل الشرقي، بحيث

---

(1) Murray, p.188.

تصل مياه النيل العذبة إلى داخل سيناء، وتصاحب جنود الإمبراطورية في حملتهم عبر سيناء والمتوجهة نحو الشرق.

وقررت القيادة البريطانية أن الحل الثالث هو الأقرب إلى التنفيذ رغم الصعوبات الفنية والهندسية التي ستواجه القوات البريطانية لتحقيقه، أي الاعتماد على ترعة الإسماعيلية، وهي المصدر الأساسي لمياه الشرب في إقليم قناة السويس كله، وذلك منذ أن نص امتياز حفر قناة السويس على ضرورة توصيل مياه النيل إلى الأراضي المتاخمة للقناة.

ولم تكن المشكلات اللوجستية المتعلقة بتوفير المياه من الترعة الحلوة ونقلها وتوصيلها للقوات المتقدمة هي العقبة الوحيدة التي واجهت البريطانيين؛ حيث ظهرت ثلاث مشكلات رئيسية أخرى استدعت جهدا وتخطيطا فائقين للتغلب عليها ألا وهي:[١]

(أ) **استحالة التنبؤ بأعداد الأفراد والحيوانات** التي ستتواجد في المواقع المتقدمة بحيث يمكن توفير امدادات المياه اللازمة لها، فعندما طلب المهندسون العسكريون من «موراي» امدادهم بجدول زمني للتحركات بحيث يمكنهم على أساسه ضبط سبل النقل وحجم المياه المنقولة، رد «موراي» باستحالة هذا الأمر لارتباطه بتطور العمليات العسكرية، التي لا يمكن التنبؤ بنتائجها، وطلب منهم توفير أقصى الاستعدادات والتهيؤ لأسوأ الظروف.

(ب) **المشكلة الثانية وهي عقبة هندسية بالأساس**، وهي أن الساحل الشرقي للقناة يرتفع عن سطح المجرى المائي لترعة الإسماعيلية بنحو ٢٠٠ قدم على الأقل، وهو ما أورده التخطيط المبدئي لمسار خط الأنابيب، بل إن القياس المتأني للجانب الشمال شرقي من شط القناة أثبت أن هذا الارتفاع قد يصل في بعض النقاط إلى ٤٥٠ قدما وهو ما استدعى استخدام ماكينات ضخ ذات قدرة مرتفعة لم تكن متوفرة في مصر،

---

(١) المرجع السابق ١٩٨-١٩٩.

ولذلك تم جلبها على وجه السرعة من بريطانيا[١].

(ج) مدى جودة المياه واحتمال إن كانت منخفضة الجودة قد تسبب أمراضا أو مشكلات صحية للجنود وهو ما استدعى تكليف المهندسين العسكريين باقتراح طرق تنقية أو (فلترة) المياه أيا كان مصدرها. وتخوف الأطباء البريطانيون بشدة من انتقال طفيل البلهارسيا إلى الجنود وإصابتهم بتداعياته الخطيرة، حيث صدرت أوامر صارمة بعدم اقتراب الجنود من مياه النيل غير المعالجة تحت أي ظرف من الظروف. وحددت حصة الفرد بجالون واحد من المياه يوميا بعد التنقية والمعاملة الكيميائية، على أن يستخدم الفرد هذا الجالون في أغراض الشرب والاغتسال والطبخ وجميع احتياجاته في أماكن التمركز على جبهات القتال[٢].

وبدأ المهندسون البريطانيون باختيار عشر نقاط كمراكز تجميع لمياه الترعة الحلوة على الشط الغربي للقناة، على أن تعزز ست نقاط منها بمحطات فلترة أو تنقية في «القنطرة»، «البلاح»، «الفردان»، «السرابيوم»، «شالوفة»، بالإضافة إلى «الكوبري». أما في النقاط الأربعة الأخرى فكانت المياه تصل مفلترة بالفعل حيث تنقلها العبارات Ferries من محطة التنقية الدائمة التي تخدم سكان مدينة الإسماعيلية، وقد تأخر العمل في نقل مياه النيل إلى شبه جزيرة سيناء حتى مارس ١٩١٦[٣].

خط أنابيب المياه وخط السكة الحديد: شريانا الحياة لقوات بريطانيا وحلفائها في سيناء

استلزمت عملية ازاحة خط الدفاع عن قناة السويس شرقا قيام البريطانيين بمشروعين كبيرين تكلفا جهدا وأموالا كثيرة بالإضافة إلى الجهد البشري الذي تكبده العمال المصريون:

المشروع الأول: وتمثل في مد خطوط أنابيب المياه العذبة الصالحة للشرب من

---

(١) المرجع السابق.

(2) LOCK, p.11-15.

(3) MURRAY, p.199.

الترعة الحلوة إلى شمال سيناء، وبدأ المشروع كما أسلفنا عن طريق تأسيس محطات التجميع والفلترة على الساحل الغربي للقناة، وضخ الماء إلى شطها الشرقي عبر أنابيب مخصوصة ذات مضخات Syphon-Pipes، لتتجمع مرة أخرى في خزانات ضخمة في نقاط مختارة شمال شرق القناة. وكان المهندسون البريطانيون يطمحون لاستخدام معدات تنقية عالية الكفاءة لم تكن لتتواجد بسهولة في مصر، ووقعوا في حيرة بسبب رغبتهم في انتظار الماكينات المطلوبة من بريطانيا، أو العمل بسرعة تتناسب مع التقدم العسكري حتى ولو باستخدام إمكانات أقل، وهو التصرف الذي كان يفضله العسكريون في معظم الوقت بغية التقدم استباقا للعدو، الذي كان بالفعل يسيطر على عدة نقاط استراتيجية داخل سيناء[١].

وبنهاية عام ١٩١٦، كان المهندسون البريطانيون والعمال المصريون قد أنجزوا مرحلة هامة من خطوط امداد المياه، فتمكنوا من رفع مياه ترعة الإسماعيلية الحلوة من «القنطرة غرب» إلى «القنطرة شرق» على قناة السويس، عن طريق مضخات قوية تدفع بالمياه العذبة المفلترة إلى خزانات ضخمة شرق القناة، ثم قاموا بمد خطوط من الأنابيب المصنوعة من حديد الصلب بدءا من هذا الخزان بمدينة «القنطرة شرق» في اتجاه مدينة «العريش». وقسمت الأنابيب إلى أربعة أقسام، يبلغ طول كل منها حوالي ٢٤ ميل، ويتناوب عليها أربع مضخات ضخمة يعمل كل منها على دفع المياه في الأنابيب من كل قسم إلى الذي يليه، وتراوح نصف قطر تلك الأنابيب بين ثمانية إلى عشرة وحتى اثني عشر بوصة، وأصبح بالإمكان في ١٩١٧ ضخ ٦٠٠ ألف جالون من المياه النقية بصورة يومية منتظمة من «القنطرة شرق» إلى «العريش»[٢].

المشروع الثاني: امتد بالتوازي مكانيا وزمنيا مع أنابيب المياه، وتمثل في مد خطوط السكك الحديدية في شمال سيناء. حيث رأى المهندسون العسكريون البريطانيون أنه

---

(١) المرجع السابق.

(2) ALLENBY, p.83.

يجب مد خطوط سكك حديدية لخدمة أفراد القوات البريطانية وحلفائهم، بحيث تستخدم هذه السكك الحديدية لنقل الجنود ومتاعهم وعتادهم وغذائهم وحتى احتياجاتهم من المياه العذبة عبر الصحراء[١]. وتقرر أن تمتد خطوط السكك الحديدية بمقياس عرضه قدمين اثنين وست بوصات تقريبا، مع حفر خنادق محاذية وقريبة للقضبان؛ لإعاقة أي محاولة تخريبية من جانب العدو، وكانت التقديرات الأولية ترى وجوب ازدواج الخط الحديدي؛ بحيث تمتد القضبان في الطريق الأول من البحيرات المرة إلى «العريش»، ويمد خط مواز لها في الاتجاه العكسي بين المنطقتين ذاتهما، بالإضافة إلى خط ثالث يربط «بورسعيد» بـ «المحمدية». لكن الرؤية العسكرية تغلبت على الخطة الهندسية مرة ثانية؛ حيث رأى العسكريون أن الترتيب الأفضل يقتضي مد السكك الحديدية في اتجاه واحد؛ لتسهيل السيطرة عليها وحراستها، وتلقت إدارة السكك الحديدية المصرية أمرا عسكريا في الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩١٥ بتهيئة خط بورسعيد – السويس للالتحام بالخط العسكري الجديد، والذي سيمتد شرق قناة السويس، وذلك عن طريق كباري معلقة عبر المجرى الملاحي للقناة، قادرة على تحمل عبور عربات السكك الحديدية من غرب القناة إلى شرقها[٢].

وأصبحت مدينة «القنطرة» نقطة تجمع هامة للعمال المصريين ممن قامت على أكتافهم وبمعاولهم وفؤوسهم وأدواتهم البسيطة تلك الجهود الجبارة لتوصيل المياه إلى سيناء، وكذلك لمد خطط السكك الحديدية الموازية له، وقد ارتكبت الكثير من التجاوزات والاهانات ضد العمال، أثناء اختيارهم ونقلهم إلي مواقع العمل المختلفة في مصر؛ خاصة في شرق البلاد، وأصبحت «السلطة» أو حشد العمال للعمل في المعسكرات – أو لخدمة الانشاءات الخاصة بالقوات البريطانية وحلفائها – واحدة من أفظع جرائم الاحتلال البريطاني ضد أهل مصر، خاصة أن ذلك الحشد استخدم فيه

---

(1) MURRAY, p.193.

(٢) المرجع السابق.

كافة وسائل القسر والإجبار، وتجنبه الكثيرون عن طريق المحاباة أو المجاملة أو عن طريق الرشوة في أحيان كثيرة[١].

وعلى الرغم من تقهقر القوات التركية – الألمانية إلى عمق سيناء بعد فشل حملة يناير وفبراير ١٩١٥ في تحقيق أهدافها، لم يخل الأتراك والألمان سيناء بالكامل؛ بل احتفظوا بنقاط إستراتيجية على رأسها مدينة «العريش» بالإضافة إلى مواقع إستراتيجية أخرى متعددة منها منطقة «بئر الحسنة» الغنية بالمياه الطبيعية، حيث قام المهندسون الألمان والأتراك بتركيب مضخة قوية تعمل على رفع المياه من آبارها المتوسطة والعميقة، ومن أجل الإضرار بجهود الأتراك والألمان لتوفير المياه العذبة، قصفت القوات البريطانية المنطقة في السادس من مارس ١٩١٦ ودمرت محطة الضخ بالكامل، تبعتها بعد أيام قليلة غارة جوية بريطانية ثانية على «نخل» في وسط سيناء، وفي الرابع والعشرين من نفس الشهر استهدف الجنود البريطانيون «بئر الحسنة» ثانية بالقنابل؛ لإرغام الأتراك على اخلائها والتخلي عن منطقة غنية بآبار المياه الصالحة للشرب[٢].

وفي منتصف أبريل عام ١٩١٦، تمكن البريطانيون بعد قتال دام أربعة أيام متواصلة من إجلاء الأتراك عن منطقتي «أم خشيب» و«الجفجافة» على المحور الأوسط، حيث كانت مصادر المياه الطبيعية الأغزر والأصلح للشرب، وتمكنت القوات البريطانية والأسترالية من تدمير محطة رفع وضخ مياه الآبار العميقة، والتي كان الأتراك قد شيدوها واستخدموها بكفاءة على مدى خمسة أشهر، بمساعدة مهندسين نمساويين، وتمكن البريطانيون من أسر مهندس عسكري نمساوي برتبة ملازم، بالإضافة إلى ثلاثة وثلاثين فردا من الجنود الأتراك بذات الموقع، وبنهاية أبريل كانت جميع مصادر المياه العذبة سواء الطبيعية أو الخزانات والمحطات القديمة

---

(١) لطيفة سالم، المرجع السابق٢٢٦.

(2) MURRAY, p.14.

والحديثة تحت إمرة وحراسة القوات البريطانية، في شريط ممتد على الساحل الشرقي لقناة السويس يبلغ عرضه ثلاثين ميلا تقريبا. وأصدر القائد «موراي» أوامر صارمة بتدمير الخزانات الأرضية الطبيعية تدميرا تاما، حال حدوث هجوم ولم يتمكن البريطانيون من صده، بحيث لا تترك خزانات المياه الثمينة كغنيمة إستراتيجية للعدو(١).

والواقع أنه قد نشبت بين الجانبين البريطاني والتركي وحلفائهما على أرض سيناء، ثلاث معارك إستراتيجية كبرى متتالية بين أغسطس ١٩١٦ وحتى يناير ١٩١٧، كانت أولى هذه المعارك، معركة «رومانة »، ثم معركة «المغضبة» وأخيرا معركة «رفح»؛ والأخيرة هي أهم المعارك الفارقة في خطة البريطانيين للاستيلاء على النقاط الإستراتيجية التي كانت تسيطر عليها القوات التركية والألمانية في شمال سيناء، وذلك بخلاف عشرات الاشتباكات المحدودة والعمليات النوعية والتخريبية، التي لم تتوقف بين الجانبين حتى نهاية حملة سيناء، وبداية حملة فلسطين بقيادة « إدموند أللنبي».

وشهدت منطقة «رومانة» المعركة الأولى عندما جاءت الحملة البريطانية على سيناء، حيث دار قتال عنيف بين القوات البريطانية – مدعومة بقوات من مختلف أنحاء الإمبراطورية البريطانية – والتي قاتلت ضد القوات التركية الألمانية وبعض الفرق النمساوية – المجرية، ومثل هذا القتال الشرس بين الطرفين كان تدشينا لحملة سيناء التي طورها البريطانيون لاحقا للتقدم نحو بلاد الشام؛ تمهيدا للقضاء على الوجود التركي في شرق المتوسط، وقد تمكن البريطانيون وحلفاؤهم من استعادة مناطق غنية بآبار المياه الطبيعية في سيناء، في كل من «قاطيا» و «دويدار» كان الأتراك يتخذونها نقاطا حصينة، تهدد «رومانة» و«القنطرة» ولا تبعد كثيرا عن قناة السويس(٢).

---

(١) المرجع السابق، ٢٠-٢٢.

(٢) المرجع السابق.

ووقعت معركة «رومانة» بين يومي الثالث والخامس من أغسطس عام ١٩١٦، حيث قاد الضابط الألماني «كريسنشتاين» قوات مشتركة من الأتراك والألمان والنمساويين، تحركوا من «العوجة» في فلسطين باتجاه وادي العريش حاملين أسلحتهم، وبخلاف هذا الاتجاه الهجومي، تحركت القوات المشار إليها عبر طريق القوافل التاريخي على المحور الشمالي، واتجهت إلى «رومانة» التي تبعد عن «القنطرة» حوالي خمسة وعشرين ميلا، وكان الأتراك والألمان قد استولوا خلال هجمات سابقة على منطقتي «دويدار» و«أوغراتينا»، وظنوا أنهم في وضع يتيح لهم تطويق القوات البريطانية في «رومانة»، والتي كان الخط الحديدي الجديد قد وصل إليها وأصبحت إحدى أهم محطاته، وقد بدأت المعركة بين الطرفين التركي الألماني من جانب والبريطاني من جانب آخر واستمر القتال بين الطرفين ثلاثة أيام متصلة ليلا ونهارا، وانتهى بكسر شوكة القوات التركية والألمانية، التي تراجعت حتى «بئر العبد»، وهناك أمر قادة الجيوش بإحراق وتدمير الخيام وكميات كبيرة من الطعام التي لم يتمكن الجنود من حملها أثناء انسحابهم، وبحلول سبتمبر ١٩١٦ كان البريطانيون قد نجحوا عن طريق عمليات إغارة محدودة مكثفة ومتتابعة في دفع الأتراك حتى مدينة «العريش» في شمال شرق سيناء(١).

وقد تمكن البريطانيون بالفعل من تطويع أراضي سيناء القاسية، وكانوا قد سيطروا على مناطق شرق القناة منذ مطلع صيف ١٩١٦، حيث نجد أن بعض الصحف ومنها وادي النيل تكتب في أغسطس ١٩١٦عن طرق معبدة ومرصوفة ومجهزة لسير العربات في سيناء؛ تبدأ من القنطرة وتتفرع شرقا داخل الصحراء الممتدة، وأن العمال المصريين كانوا يقومون برش المياه على الطرق الترابية والرملية في شمال غرب سيناء لتهدئة فوران الأتربة عليها عقب المرور الكثيف والمحموم للقوات البريطانية وقوات الحلفاء(٢). وكانت الأعمال الإنشائية العظيمة التي تمت بسواعد العمال المصريين من

(1) LOCK, p.13-16.

(٢) لطيفة سالم، ص ٢٣٠.

مد أنابيب المياه، وطمرها تحت الأرض، وتعبيد الطرق ومد السكك الحديدية، التي كانت كلمة السر في تفوق بريطانيا على أعدائها في سيناء.

والواقع أن معركة «رومانة» قد حددت ايقاع معارك سيناء التالية، والتي ستظهر من خلالها الأهمية الفائقة لخطوط الإمداد والتموين وتوفر مصادر المياه العذبة، كلما توغلت القوات شرقا أو امتد مسرح العمليات إلى عمق سيناء وشرقها.

وكتب «موراي» في مذكراته أن ضمان وصول المياه بكميات وفيرة إلى منطقة قريبة من «العريش» كان العامل الذي دفعه إلى الانتظار بين سبتمبر وديسمبر ١٩١٦ قبل أن يقوم بالهجوم على القوات التركية الألمانية المتمترسة في تلك المدينة الأهم في سيناء قاطبة؛ حيث حاصرت القوات البريطانية النقاط الحصينة والإستراتجية في شمال شرق سيناء، ونقلت معها مياه الشرب من «رومانة» إما بفناطيس مياه حملتها الجمال أوعن طريق خزانات نقلتها السكك الحديدية، في الوقت الذي كانت فيه القوات التركية الألمانية قد سيطرت على مصادر المياه الطبيعية الغنية الموجدة في كل من «العريش» و «المساعيد»[1].

وعلى كل حال فقد نجح المهندسون البريطانيون من توصيل مياه النيل مدفوعة بخط الأنابيب من القنطرة حتى «بئر العبد»؛ مما منح «موراي» الثقة وشعورا باقتراب وقت الهجوم الشامل على «العريش». حيث كان سلاح الجو البريطاني آنذاك يرصد تحركات متسارعة للقوات التركية، وتزايدا في أعداد الحشود خلال منتصف ديسمبر عام ١٩١٦، وذلك بمنطقتي «المغضبة» و «أبو عجيلة» اللتان تقعان إلى الجنوب من مقر القيادة العسكرية للقوات التركية الألمانية في «العريش»، وتمثلان النقاط الأقرب لمعسكرات البريطانيين في «بئر العبد»، وقرب وقت الهجوم أمر «موراي» القطع البحرية الإنجليزية والفرنسية على سواحل البحر المتوسط بالاستعداد لقصف مواقع

---

(1) MURRAY, p.97.

العدو بالقرب من الساحل[١].

وفي ديسمبر ١٩١٦ وقعت المعركة الثانية بين القوات البريطانية ومن معها والقوات التركية – الألمانية المشتركة التي تخلت عن مواقعها في العريش على أثر الهجوم البريطاني، واتجهت صوب الجنوب الشرقي بنحو ثلاثين ميلا، عند منطقة إستراتيجية تدعى «المغضبة»، وتوارت القوات التركية والألمانية، وأصبح من الصعب العثور على أي من وحداتها، ولعب سلاح الجو الأسترالي دورا كبيرا في هذه المعركة، حيث مشط الطيارون الأستراليون كافة أنحاء المنطقة، والتقطوا صورا مكنت القيادة البريطانية من تحديد مكان اختباء بطاريات المدفعية التركية، ثم اشتركت طائرة بريطانية واحدة مع عشرة طائرات أسترالية في قصف مكثف على «المغضبة» يومي الثاني والعشرين والثالث والعشرين من ديسمبر ١٩١٦، ثم اشتبكت القوات البرية البريطانية في «المغضبة» يوم الثالث والعشرين من ديسمبر اشتباكا مباشرا، واستخدمت القوات البريطانية ومن معها، وكذلك القوات التركية الألمانية المدفعية الثقيلة، وقد تمكنت القوات البريطانية والأسترالية من محاصرة الأتراك، وأسر أكثر من عشرين ضابطا من ذوي الرتب الرفيعة، وانتهى ذلك اليوم الرهيب باستسلام الجنود الأتراك والألمان وانتصار القوات البريطانية التي ثبتت وجودها في منطقتي «المغضبة» و«العريش» وأصبحت على بعد أميال قليلة من الحدود المصرية الفلسطينية، واقترب تحقيق الهدف الأساسي بدفع القوات التركية خارج سيناء قاطبة[٢].

أما المعركة الفاصلة والأخيرة والتي أدت إلى إزاحة الأتراك وحلفائهم من شمال سيناء بالكامل فكانت معركة «رفح» في ٩ يناير ١٩١٧، وفيها هاجم البريطانيون «رفح» من جنوبها انطلاقا من «الشيخ زويد»، بعد أن كانت القوات البريطانية مع الفيالق الأسترالية والنيوزيلندية والجمالة من المصريين والهنود قد استقروا في العريش،

---

(١) المرجع السابق.

(2) FALLS, p.254-257.

وبدأوا في تدعيم معسكراتهم بها بعد إخراج الأتراك منها عقب معركة «المغضبة».

والواقع أنه كان للمؤن دور كبير في المعارك التي دارت في أنحاء سيناء، وكانت مؤن القوات البريطانية في تناقص مستمر حتى في الأيام القليلة السابقة على معركة «المغضبة»، وكاد الضباط الإنجليز ومن معهم أن يضطروا للذهاب إلى القنطرة على بعد أكثر من ٩٠ ميلا جنوب غرب «العريش» لجلب احتياجاتهم؛ غير أن وصول المؤن من سفن البحرية البريطانية على ساحل البحر المتوسط يوم الثاني والعشرين من ديسمبر قد خفف من حاجة الضباط وحيرتهم، وقد استمرت البحرية البريطانية في تزويد القوات المتمركزة في «العريش» بالمؤن لعدة أيام متتالية، فقد وصلها عن طريق البحر مؤنا بلغت كمياتها قرابة ١٥٠٠ طن، قام بتفريغها العمال المصريون تحت حماية المدفعية الهندية والنيوزيلندية، وفي الرابع من يناير ١٩١٧ وصل خط سكك حديد سيناء إلى «العريش» وقام العمال بتسيير العربات لأول مرة في شمال شرق سيناء، مما ساعد على سهولة توزيع المياه والمؤن والذخيرة، وبعد أن اطمأن «موراي» إلى توافر المؤن والمياه العذبة ووصول الخط الحديدي إلى «العريش»، أصدر أوامره بالزحف شرقا لمسافة ٢٧ ميلا للاستيلاء على «رفح»، في صبيحة التاسع من يناير ١٩١٧[١]. وبعد قتال عنيف، شاركت فيه قوات الجانبين بكل ما أوتيت من قوة، استطاع البريطانيون وحلفاؤهم الانتصار على الأتراك والألمان، برغم الدور الكبير الذي قام به سلاح الجو الألماني والمدفعية التركية طيلة المعركة، حتى أنهم كبدوا البريطانيين وحلفاءهم خسائر واصابات تجاوزت ثلاثة أمثال ما خسروه في معركة «المغضبة».

وكتب إدموند «أللنبي» في تقريره الشامل عن أهمية دور المصريين في حملتي سيناء وفلسطين معتبرا أن نقل المياه من غرب القناة كان هدفه الأساسي سقاية القوات البريطانية والقوات المتحالفة معها، وكان عددها محدودا، وكان أقصى طموحها الاستيلاء على مدينة «العريش» التي كانت تحت السيطرة التركية؛ وكانت عملية توفير

---

(١) المرجع السابق، ٢٦٢-٢٧١.

المؤن اللازمة للجيش خاصة المياه العذبة خطوة أولية قبل أن يتقرر تحويل الدفاع المتقدم لقوات الحلفاء إلى هجوم كاسح نحو بلاد الشام، وعلى كل حال فإن القرار الذي اتخذ للقيام بحملة فلسطين كان يعني أن القوات البريطانية في تقدمها شرقا في تلك الجهات الصحراوية القاحلة سوف يسبق مسيرتها توفير عنصرين أساسيين وضروريين ويتمثلان في أنابيب المياه العذبة وخط السكة الحديد[١].

التخطيط العلمي واللوجستي يفضي إلى انتصار بريطانيا وحلفائها

لم يكن الانتصار البريطاني في حملة سيناء قائما فقط على التفوق العسكري أو حداثة المعدات وهمة الجنود؛ وإنما أيضا لتوافر المؤن والمياه العذبة ولوازم الجنود في حرب تدور في صحراء قاحلة. وتعد حملة سيناء خلال عامي ١٩١٦ و١٩١٧ درسا إستراتيجيا هاما، في أهمية حشد القوى العلمية والخبرات الهندسية والتخطيط الإستراتيجي وجهود التعبئة المدروسة للرجال والمهمات على حد سواء قبل خوض أي حرب. فالقوات التركية والألمانية والنمساوية – المجرية التي قاتلت ضد الحلفاء في سيناء وفلسطين لم يكن ينقصها الرجال أو الخبرة القتالية لكي تتفوق أو على الأقل لكي تصمد في وجه الهجوم البريطاني المضاد الذي أتاها من سيناء إلى مواقعها الإستراتيجية في الشام، لكن التفوق البريطاني العلمي واللوجستي – من مياه ومؤن وأسلحة – كان هو العنصر الأساسي في حسم المعركة.

ويتضح تباهي البريطانيين بجهدهم العلمي فيما يتصل بتوصيل المؤن ما كتبه الضابط «لوك»؛ الذي أقر بأن وسائل حمل ونقل المياه في صحراء سيناء كانت معروفة عبر آلاف السنين، فالقوات البريطانية اعتادت استخدام خزانات صغيرة متنقلة على ظهور الجمال، بينما حمل الأتراك المياه العذبة من فلسطين ومن آبار سيناء وجروها جرا مع معداتهم وصولا إلى شرق القناة، لكن العلم الحديث – بحسب «لوك»- جعل البريطانيين يفكرون في حل أفضل؛ ألا وهو ضخ مياه النيل من غرب قناة السويس إلى

(1) ALLENBY, p.83-86.

شرقها، وإرسالها في أنابيب متصلة مطمورة تحت الأرض، دون الحاجة لاستنزاف الجهد البدني للرجال أو الجمال(١).

ولابد من الاشارة في هذا المقام إلى بعض الأفعال والأقوال التي تعد غير أخلاقية فيما يخص الحشود البريطانية في حملة سيناء؛ حيث ارتكبت القوات البريطانية أفعالا تعد خروجا على تقاليد الحرب الشريفة، كذلك حفلت كتابات بعض القادة المشاركين في تلك المعارك بتعليقات وإشارات عنصرية، قللوا فيها من شأن الجنود الأتراك أو العرب الذين قاتلوا في صف القوات التركية، وسنحاول الاشارة إلى بعض هذه الأفعال.

وفي هذا المجال ارتكبت القوات البريطانية جرائم حرب في حق المصريين من أهل سيناء؛ عندما قامت بتخريب معظم مصادر المياه الطبيعية على طول المحور الأوسط، الذي يخترق سيناء من الشرق إلى الغرب مارا بمناطق وسط سيناء الغنية بالخزانات الطبيعية والآبار الجوفية، حيث قامت فرقة من المهندسين العسكريين وجنود من القوات البريطانية بتفريغ خزان مياه أمطار هائل عند منطقة «أم خشيب» بالقرب من وادي «المليز» في شهر يونيو ١٩١٦، واستمرت تلك القوات في تفريغ الخزان من المياه على مدى ثمانية أيام كاملة، تم خلالها تصفية قرابة خمسة ملايين جالون أمريكي من المياه الجوفية (١٨ مليون لتر تقريبا)، وقاموا بتعبئتها في خزانات متنقلة ونقلها إلى المعسكرات البريطانية على المحور الشمالي، وبعد ذلك قام المهندسون والجنود بردم ذلك الخزان الأرضي الضخم؛ حتى لا يمتلئ بمياه الأمطار في الموسم التالي ويصبح مفيدا للقوات التركية أو يدعم تقدمها باتجاه القناة حال الهجوم المضاد، وكانت عمليات التخريب تلك قد تكررت عدة مرات على مستويات متفاوتة، وفي مواقع غنية بالمياه الطبيعية، التي كان أبناء القبائل السيناوية وعناصر القوافل التجارية قد عرفتها واستفادت منها على مدى قرون، خاصة

(1) LOCK, p.11-12.

بالقرب من «الجفجافة» و«الحسنة»[١].

وكتب الضابط «لوك» في مذكراته أن تفريغ خزانات المياه الطبيعية على المحور الأوسط حرم الأتراك من القدرة على شن بعض الهجمات المحدودة على شمال غرب سيناء، خاصة في مناطق «قاطيا» و «دويدار» وغيرها من النقاط التي كانت تقع على مشارف القنطرة، وكان أي تهديد على تلك المناطق يعتبر مصدر تهديد كبير على خزانات المياه ومحطة السكك الحديدية الرئيسية في «القنطرة» شرق[٢]. وبرر البريطانيون فعلتهم تلك بأن الأتراك قد اخترقوا هذا المحور بالفعل في هجومهم الأول في يناير ١٩١٥ وهوما يخول لهم - أي للبريطانيين - تدمير أية عناصر أو مقومات طبيعية تتيح للأتراك تكرار هجومهم السابق، خاصة على موارد المياه العذبة.

كذلك حفلت كتابات الضباط البريطانيين بإشارات وعبارات فيها تقليل من شأن خصومهم الأتراك، ولا يرجع ذلك إلى الخصومة العسكرية؛ حيث كتب هؤلاء البريطانيون في السياق نفسه عبارات ملؤها الإعجاب والإشادة بتفاني وشجاعة ومهارة الضباط والجنود الألمان، فاستخدم البريطانيون عبارات مثل الجندي الأوروبي، والجندي الأبيض وغيرها من الأوصاف التي خصوا بها أنفسهم كعنصر متفوق عرقيا وثقافيا. ومن ذلك ما كتبه الميجور «لوك» في تعليقه على خزانات المياه الطبيعية في سيناء حيث كتب أن الجندي التركي سيرضى بالشرب من الآبار الطبيعية دون حرج أو تأفف، وكتب نصا « أن الرجل التركي لا يأبه لجودة المياه التي يشربها مقارنة بالرجل الأبيض، فالتركي سوف يشرب دون شك من تجمعات المياه الراكدة تلك، التي لا يمكن لأحد مجرد التفكير في تقديمها لجندي بريطاني لكي يشربها»[٣]. ولم تتوقف تلك النظرة الدونية على الأتراك أو فيما يخص تجمعات المياه الطبيعية بل

---

(1) FALLS, p.178.

(2) LOCK, p.13.

(٣) المرجع السابق ٥-٦.

امتدت إلى التعالي على حياة السكان من أهالي المنطقة؛ فنجد «موراي» قائد القوات يكتب في مذكراته أنه أثناء تطوير الهجوم نحو قطاع غزة اضطرت القوات البريطانية للاعتماد على المياه التي نقلتها عبر خط السكك الحديدية من «العريش» لأن مياه الآبار التي يشربها سكان «دير البلح» غير صالحة لاستهلاك (القوات البيضاء White Troops) على حد تعبيره، بل ووصل الأمر إلى حد القول أنه يمكن تقديم الماء الذي يشربه الأهالي فقط للحيوانات العاملة في خدمة جيوش الحلفاء[١].ويبدو أن هذا المنحى المبالغ والمتعالي كان الهدف منه إظهار وتبرير الجهد والنفقات التي تكبدتها بريطانيا لمد خط الأنابيب وإنشاء خط السكة الحديد في شمال سيناء؛ بدليل أن «أللنبي» قد كتب في تقريره عن حملة فلسطين أن مياه الآبار الطبيعية في «دير البلح» و «الشلال» كانت أفضل وأغنى مصادر المياه الطبيعية في وادي الغز جنوب فلسطين، وأن القوات البريطانية قد استفادت منها أيما استفادة؛ لأن الأتراك تخلوا عن هذين الموقعين دون قتال يذكر[٢]. كما استخدم «موراي » تعبيرات عنصرية بغيضة في وصفه لآبار المياه الطبيعية بالقرب من «القنطرة» فكتب في تقريره أن الآبار ذات المياه المالحة في تلك المنطقة يتحملها البدو من سكان سيناء وحتى الأتراك، ولكنها بلا شك ستسبب الأمراض للجنود الأوروبيين بل وستسبب المرض للحيوانات الأوروبية أيضا[٣].

ونشرت الصحف البريطانية عدة مرات أخبارا عن جنود أتراك أو ألمان وجدوا ضائعين وعلى شفا الموت عطشا في صحراء سيناء، ولم تدخر القيادة البريطانية جهدا في توصيل أخبار جنود هؤلاء الأعداء من العطشى التائهين في الصحراء إلى الصحف الغربية كلما أمكن؛ لتثبت للرأي العام وللسياسيين في بريطانيا على حد سواء أن ما تكلفته بريطانيا من أموال ورجال لإتمام إنشاءات حملة سيناء لم يضع هباء، وأنها لم تكن مغامرة طائشة او تكاليف ضائعة، بل كانت أمرا لا غنى عنه لترجيح كفة جنود قوات

---

(1) MURRAY, p.190.
(2) ALLENBY, p.83.
(3) MURRAY, p.52.

الإمبراطورية البريطانية وحلفائها في صحراء سيناء، وإلا هلكوا عطشا في الصحراء ولاقوا نفس مصير الجنود الأتراك.

ومما هو جدير بالذكر في مسار بحثنا هذا ذلك الدور الذي لعبته شركة قناة السويس التي سخرت جميع إمكاناتها لمعاونة البريطانيين وحلفائهم في حروب منطقة القناة وسيناء وكذلك أثناء حملة فلسطين. ولم تطلب الشركة قرشا واحدا أو حتى دعما عينيا من أي نوع من البريطانيين، رغم استغلال هؤلاء لمخازن الشركة ومعداتها طوال سنوات الحرب الأربعة(١). مما يؤكد عدم التزام شركة القناة بالحياد في النزاعات العسكرية حسب بنود اتفاقية القسطنطينية الخاصة بحرية الملاحة وحياد القناة السياسي والعسكري، تلك الاتفاقية الموقع عليها عام ١٨٨٨ والمعدلة في ١٩٠٤، حيث وقعتها بريطانيا بعد عقد الاتفاق الودي مع فرنسا.

والواقع أن مسألة التزام الحياد كان أمرا غير ممكن، في ظل غلبة الكفة البريطانية باعتبارها قوة الاحتلال في مصر، ولكونها الدولة التي كانت تستحوذ على القدر الأكبر من أسهم قناة السويس آنذاك، ولم يحاول البريطانيون انكار خرقهم لشروط الاتفاقية، ويرى «الجوود» أن بريطانيا لم توقع الاتفاقية إلا عقب الاتفاق الودي؛ لشعورها بالاطمئنان نتيجة لاستقرار الاحتلال في مصر، وتحسن العلاقات مع فرنسا، ويبرر «الجوود» خرق بريطانيا لمعاهدة القسطنطينية ونشر القطع الحربية البريطانية والفرنسية في المجرى الملاحي لقناة السويس بسبب التحركات العدائية لكل من الأتراك والألمان(٢).

وعندما تقدم «أللنبي» نحو فلسطين كتب في تقاريره الحربية أن نجاح القوات البريطانية في اجتياز المائة وخمسين ميلا بين غرب قناة السويس وصولا إلى القدس إنما يرجع إلى بطولات المهندسين العسكريين الذين وفروا أنابيب المياه العذبة والسكك

---

(1) ELGOOD, (1920), p.81.

(2) ELGOOD, (1928), p.220.

الحديدية عبر تلك الصحراء المخادعة[١].

وقد اعتبر «أللنبي» بطلا لحيلة أخرى من حيل الدعاية التي روجها البريطانيون بشأن المياه والحرب في سيناء وفلسطين؛ حين زعم البريطانيون أن نبوءة عربية قديمة تقول إن الحكم التركي لفلسطين سينتهي بظهور نبي يأتي إلى «القدس» من الغرب حاملا ماء النيل إلى فلسطين، وتلقف هذه النبوءة المزعومة ضابط بريطاني برتبة ميجور يدعى «جاي دوناي» وكتب رسالة مطولة إلى الكولونيل «ألفريد باركر» الحاكم العسكري لسيناء يقول فيها أن النبوءة قد تحققت، لأن حروف اسم «أللنبي» تكتب بالعربية بحروف مشابهة لكلمة (النبي)؛ كما أن « أللنبي» دخل إلى «القدس» بعد أن ضخ ماء النيل في أنابيب المياه العذبة إلى شرق قناة السويس ومنها إلى فلسطين، وأعجبت النبوءة الضباط والعساكر البريطانيين وحلفاءهم، وذاع صيتها في الصحافة البريطانية التي روجت بحماس لقصة النبي المنتظر ألا وهو الجنرال «أللنبي» محرر «القدس» وناقل مياه النيل إلى فلسطين[٢]. وتماشت هذه الصورة بشكل كبير مع الدعاية الغربية الموجهة إلى عوام الأوروبيين، والتي صورت حملة فلسطين باعتبارها حملة صليبية أخيرة؛ هدفها تطهير «القدس» والأراضي المقدسة في فلسطين The Holy Land من حكم الأتراك المسلمين إلى غير رجعة.

وتقدم العديد من النواب البريطانيين إلى مجلس العموم يشيدون بقواتهم في الشرق وخاصة في مصر، ورأوا أن نقل المياه عبر الصحراء المصرية كان اعجازا علميا وفنيا كبيرا يستحق الإشادة، فنجد «جورج كيرزون» يخطب في مجلس اللوردات قائلا:

«لم ينقص المعركة الدائرة في مصر القتال العنيف أو البطولات الفردية لرجالنا، لكن الأهم أن ذلك النصر يشهد على انتصار الجهود العلمية المنظمة... إن ما يحدث في الحملة الموجهة إلى فلسطين يتحقق بفضل كل رطل من الطعام، وكل جالون من

---

(1) ALLENBY, p.83.

(2) BAR-YOSEF, p.98.

المياه العذبة، يشربه أفراد قواتنا المقاتلة بعد أن يخترق الصحراء قادما من أرض مصر عبر مسافة ١٥٠ ميلا... إن الإنجاز الذي تحقق هناك لا يقل أهمية عن الانتصار على الجبهة الفرنسية»[١].

ومن هنا يتضح كيف أن الحرب العالمية الأولى في معارك الجبهتين الشرقية والغربية، حفلت بالإبداع والابتكار وايجاد الحلول غير التقليدية للمشكلات التي تواجه العسكريين، فمن الخنادق إلى الحرب الكيماوية، ومن استخدام الطيارات والغواصات إلى نقل المياه العذبة داخل الصحراء، لقد شهدت تلك الحرب في الربع الأول من القرن العشرين التحالف بين العلم والقوة؛ للانتصار في الحروب والغلبة في المعارك العسكرية، حتى أن ذلك التوظيف للعلم والتخطيط قد أودى بإمبراطوريات بأكملها، بينما رسخ أقدام قوى عالمية استطاعت أن تشق طريقها بالجمع بين العلم الحديث والسلاح المتطور معا.

---

(1) George Curzon addressing the Lords' council of the British Parliament, Vote of thanks the forces, October 29th, 1917.

https://api.parliament.uk/historic-hansard/lords/1917/oct/29/vote-of-thanks-to-the-forces.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

George Curzon addressing the Lords' Council of the British parliament, Vote of thanks the forces, 29th October 1917, https://api.parliament.uk/historic-hansard/lords/1917/oct/29/vote-of-thanks-to-the-forces

ثانيا: المراجع

- سالم، لطيفة محمد. انجلترا ومصر بين اعلان الحرب وفرض الحماية، في: سالم، لطيفة محمد (محرر). بحوث ودراسات ندوة مصر في الحرب العالمية الأولى: بمناسبة مرور مائة عام، مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٦ (ص ص: ٤٣-٧٠).

- ـــــــــــ، المصريون في الميدان الحربي، في: سالم، لطيفة محمد (محرر). بحوث ودراسات ندوة مصر في الحرب العالمية الأولى، السابق (ص ص: ٢١٣- ٢٤٤).

ALLENBY, EDMUND (1919) "*A brief Record of The Advance of The Egyptian Expeditionary Force under The Command of General Sir E. Allenby July 1916 to October 1918*", H.M Stationary Office, London.

BEAN, C.E.W. (1941) "*The Story of Anzac: the first phase*", 11th Edition, Sydney.

ELGOOD, P.G. (1920) "*Egypt and The Army*", Oxford University Press, London.

_____, (1928) "*The Transit of Egypt*", Edward Arnold &Co, London.

FALLS, CYRIL. (1930) "*Military Operations in Egypt & Palestine from June 1917 to the End of the War: Official History of the Great War*", HM Stationery Office, London.

LOCK, H.O. (1919) With the British Army in The Holly Land, Roxburghe House, London.

MURRAY, ARCHIBALD. (1920) "*Sir Archibald Murray Dispatches June1916-June1917*", J.M Dent and Sons, London.

NATO Glossary of Terms and Definitions, AAP06, 2013, https://www.jcs.mil/Portals/36/Documents/Doctrine/Other_Pubs/aap6.pdf

ثالثا: الدوريات

BAR-YOSEF, EITAN. *The Last Crusade? British Propaganda and the Palestine Campaign 1917-18*, Journal of Contemporary History 36, no. 1 (2001): 87-109

KITCHEN, JAMES E. *Egyptian Expeditionary Force*, International Encyclopedia of the First World War 1914-1918, Ute Daniel, Peter Gatrell et al (ed.), Freie Universität Berlin, Berlin (23/5/2017).

KYLE J. ANDERSON. *The Egyptian Labor Corps: Workers, Peasants and the State in World War I*, International Journal of Middle East Studies, 49 (2017), 5–24